أهمية الأدب في السلوك الصوفي –الصلاة على النبي نموذجا–

أ.لغرس سوهيلة

كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الإنسانية

جامعة معسكر .

مدخل :

يعتبر التصوف الإسلامي منبع الشفافية و النورانية ،فهو يسمو بالروح ويزكوا بالنفس ،و هذا ما أدى بالعديد من الباحثين و الدارسين و المؤرخين للاهتمام به ، بحيث كانت تهدف دراسة كل واحد منهم الكشف عن أبعاد هذا المنهج السلوكي (الصوفي) الذي لا ينفصل عن العقيدة و الشريعة الإسلامية .

و من أسس المنهج الصوفي نجد الأدب الذي يحتل منزلة عظمى عند الصوفية ، و لكن قبل الخوض في الحديث عن هذه النقطة التي هي محور و مركز مداخلتنا سنتطرق للحديث عن التصوف السني دون سواه ، ذلك لأنه مبني على الزهد و التقشف الذي عرف عليه الرسول صلى الله عليه وسلم و الصحابة ،و يمثله كل من الحارث المحاسبي و أبو قاسم الجنيد و الغزالي .فقد عرف التصوف عند الغزالي بالاعتدال ،و التشبث بالقران والسنة زيادة عن ذلك نجد أن الغزالي عمل على التوفيق بين التصوف و الشريعة الإسلامية وذلك بناءا على أن التصوف ما هو إلا تحقيق للشريعة لدى المسلم إيمانا و فعلا ،اعتقادا و ممارسة .و يمكننا تلخيص بنية النسق الصوفي السني في صيغته الغزالية من خلال الحقائق التالية :

أولا :"الله وحده هو الموجود ،وهو الحق وحده ،يفيض على العالم بعلمه الذي لا يمكن إدراكه عن طريق الحس أو النظر .

ثانيا :أن الخير الأسمى يتجسد فقط في معرفة الله ،و الشر هو الانشغال بكل ما يحول دون هذه المعرفة .

ثالثا : أن التسليم بقضاء الله و قدره دليل المؤمن إلى الاستسلام للحوادث و الكوارث ،لأنها ترفع إلا بقضائه و قدره أيضا . رابعا : لكون الله سبحانه هو الحق وحده ،فما عداه باطل ،فالدنيا زائلة و هي دار عبور إلى الآخرة ، لا تستحق الاهتمام"[1].

يؤسس الغزالي التصوف السني على مجموعة من القواعد و المبادئ ، مؤكدا في ذلك ضرورة التمسك و الرجوع إلى الكتاب و السنة بالالتزام بالأوامر و تجنب النواهي و ذلك من خلال اجتهاد المريد بمعنى سهره (المريد) لليالي في عبادة الله و ذكره للوصول إلى أعلى درجات محبة الله وكثرة الذكر تؤدي إلى تحقيق حقيقة التوحيد و للوصول إلى كل هذا يجب على المريد إتباع القواعد العشر الآتية :

–القاعدة الأولى :" النية الصادقة الواقعة من غير التواء ، و المراد بالنية هنا عزم القلب الصادق على الفعل أو الترك لله ، و الاستمرار على ذلك ، وعدم تغيير تلك النية.

القاعدة الثانية :إخلاص العمل لله ، من غير شريك ،و لا اشتراك و عدم الرضا بغير حق و التخلق بالقناعة .

–القاعدة الثالثة :إتباع أوامر الشرع.

– **القاعدة الرابعة** :العمل بالإتباع لا بالابتداع.

–القاعدة الخامسة : إتباع السنة.

–القاعدة السادسة : العجز و الذلة وذلك أمام قدرة الله و إرادته .

–**القاعدة السابعة** : الخوف من عقاب الله.

–**القاعدة الثامنة** :دوام الذكر.

-**القاعدة التاسعة** : المداومة على مراقبة الله .

- **القاعدة العاشرة** : معرفة ما يجب الاشتغال به ."[2]

ومما سبق ذكره نستخلص أن التصوف عند الغزالي يعتبر كأساس للتربية ففي فلسفته الصوفية نجده أنه يجمع بين طرفي التربية العلم و العمل ، الإيمان و التطبيق أي بالمعرفة و الممارسة ،و هذه الأخيرة التي تتلخص في الفضائل و الأخلاق و الآداب و تجنب مختلف الرذائل و مساوئ السلوك بكل أنواعها .

1- علاقة التصوف بالتربية :

إن علاقة التصوف بالتربية هي علاقة أصيلة و جوهرية ووطيدة ذلك لأن التصوف لا يحقق أهدافه المنشودة ولا يسمو بالنفس و لا يصل إلى القلب إلا بانتهاج أسلوب التربية ، لذا فالتربية هي :"الصيغة النظرية المتمثلة في مجموعة القواعد السلوكية و مصطلحاتها و آدابها و علاقاتها ، وهي التجربة النفسية الشاقة التي يعانيها السالك للتخلص من غشاوتها و وعوائقها و عوارضها ، مطبقا بأقصى درجة فرائض و نوافل الشرع ،و متخلقا بأحسن الأخلاق و هو يعبر من مرحلة البداية إلى ما فوقها غائصا في أعماق نفسه باحثا عن الشوائب ، منقبا عن الأعشاب الضارة التي تمنع بذور الصفاء من إنبات المعرفة الموفقة ، حريصا كل الحرص على مراقبة نفسه و محاسبتها ، وحارسا لقلبه عن التغير ،مراقبا لجوارحه عن الفتور ، متورعا عن الشبه و الحرام ، زاهدا في كثير من الحلال إلا ما دعت إليه الضرورة و ألزمته إياه الحاجة ،قاضيا لغيره على نفسه ، متهما إياها ، متعللا عن الغير معتذرا له عن خطئه قبل أن يعتذر "[3]

إذن : من خلال التعريف نستخلص أن التربية الصوفية تهدف إلى تصفية النفس و تهذيب الأخلاق و السعي للوصول إلى الله عز وجل ونيل رضاه.

فالتربية كمنهج أو كمؤسسة أو كغرض فهي تلعب دورا أساسيا في إثراء التجربة الصوفية من خلال تلقينها للأخلاق و الآداب التي يجب على كل سالك أن يتصف بها ، و عليه يمكننا أن نوجز أو نعرض أهم مميزات التربية الصوفية التي تجعلها تختلف عن الفلسفات التربوية الأخرى ، ومن هذه المميزات نذكر ما يلي :

1-تتميز التربية الصوفية" بالحرية في اختيار القواعد و الطرق التي تتبعها بعيدا عن الخضوع لأفكار أو نظم مقننة ،أو الامتثال لمذاهب سياسية أيا كانت صبغة تلك المذاهب و ألوانها ، فهي ترفض أشكال التيارات السياسية من أموية أو عباسية أو شيعية ،كما ترفض الفرق الأصولية كالخوارج و المعتزلة و الأشاعرة .

2-و تتميز أيضا باهتمامها بالحرية الإنسانية في شكل عام وشامل و هنا نقصد الحرية في جانبها الذاتي أي التخلص من أسر النفس ومن الخضوع لأنانية الهوى و الشهوة وتسلطهما"[4]

فتحقيق الحرية عند المريد يكون من خلال التربية الصوفية التي تلقاها على يد معلمه (الشيخ) ، و بعبارة أخرى أن الصوفي لا يتخلص أو يتخطى الهوى أو نزوات الدنيا إلا بعد ما يتعلم على يد الشيخ.

3 -تؤكد التربية الصوفية على ضرورة اتصاف السالك بالأدب الفائق و الأخلاق العليا والمثلى.

من خلال هذه المميزات نستنتج أن التربية الصوفية مستقلة بذاتها بمعنى أنها بعيدة كل البعد عن أفكار و مبادئ التيارات السياسية بكل أنواعها و كذلك عن مختلف الفرق الإسلامية أما فيما يخص الحرية في الفكر الصوفي فنجدها تتلخص في الانتصار على أنانية الذات وهنا نجد أن الذات تحارب نفسها ساعية لتحقيق الأنانية الأعلى التي تستمتع فيها الذات بمطالب أرقى ،و لذائذ أسمى وبالتالي تجاوز الأنانية الأدنى . وهنا يكون عداء الإنسان عداء داخلي لا عداء خارجي أي مع الغير (الإنسان).

و أن الأدب و الأخلاق سمتان ضروريتان للتربية الصوفية .

بعدما تطرقنا للحديث عن التربية الصوفية و ذكر مميزاتها وجب علينا الإشارة إلى الأطراف الأساسية المساهمة في هذه العملية و التي تتمثل فيما يلي:

1) الشيخ (المربي) : يعتبر الشيخ طرفا هاما في العملية التربوية ، ومن دونه فان العملية ليس لها قيمة و لا وجود و قد أشار الى ذلك العديد من المفكرين الصوفيين في قولهم : " يعتبر الشيخ حجر الزاوية في التربية ، ومن لم يكن له شيخ فليس بشيء "[5] و في هذا المعنى نجد **البسطامي** في قوله : " من لم يكن له أستاذ فإمامه شيطان"[6]

و يقول **الرفاعي**: " من لم يكن له أستاذ فشيخه شيطان "[7].

وتبرز أهمية الشيخ في وظيفته التربوية و الدينية في آن واحد ، فيكمن دوره العظيم " في صنع الأفراد صنعا ينمي الجوانب الإنسانية كلها فهو الذي يتفاعل مع تلميذه تفاعلا مثمرا ، وهو الذي ينقل ما لديه إلى الملتفين حوله من طالبي التعلم و هو الشخص الوحيد الذي يقف على حاجات المتعلم و يلبيها، وينميها ، ... ويراقبه في تفكيره و حركاته و يرشده و يصحح له أو يشجعه و يدفعه و يبصره بين الحين و الحين ليقومه"[8].

ولا يتوقف الأمر هنا بل نجد أيضا أن للشيخ (المربي) أهمية في القرآن الكريم وذلك انطلاقا من المهمة التي يقوم بها والتي تتمثل في التربية الدينية و الروحية ، والمربي أو الشيخ الذي يحمل هذه المهمة هو النبي (بصيغة الجمع : كل الأنبياء بدون استثناء).

2) المريد (التلميذ) : وهو الشخص الذي يتلقى التربية من معلمه (الشيخ) و يتبع أوامره دون أن يرفض أو يناقش ما يتعلمه من معلمه ،أي أن المريد يكون في يد شيخه و في هذا السياق نجد بعض الصوفيين " يشبهون المريد كالميت عند مغسله"[9].

في حين نجد أن بعضهم قد أشاروا إلى ذلك في شعرهم قائلين :

"وكن عنده كالميت عند المغسل يقلبه ما شاء وهو مطاوع .
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه فان الاعتراض تنازع.
وسلم له فيما تراه ولو يكن على غيره مشروع فثم مخادع .
وفي قصة الخضر الكريم كفاية لقتل الغلام و الكليم يدافع"[10] .

3) المناهج و النظم الدراسية : ونقصد هنا مضمون الرسالة التعليمية و كيفية تلقينها للمريد .

4-أماكن الدراسة .

2- مكانة الأدب عند الصوفية :المفهوم و الأهمية

2-1 مفهوم الأدب :

نجد أن للأدب تعار يف متنوعة و متعددة إلا أننا في هذا المقال سنشير إلى البعض منها فقط .

2-1-1 لغة :

إن الدلالة اللغوية للأدب نجدها ترتبط بالعلوم و المعارف هذا من جهة و من جهة أخرى فكلمة أدب تدل على الصفات وهي مركز حديثنا و مبتغاه يقال :"أدبه هذبه وراض أخلاقه ،و تأدب تهذب ،و تأدب به اقتدى ،وتأدب عنه تخلق بأخلاقه و أدبه علمه الأدب وأدب السلطان البلاد أقام العدل و ملأها بالقسط "[11].

وتتلخص هذه الصفات في الصفات الحميدة و السوية التي ترفع من شأن المرء و تصنع له مكانة في الوسط الذي يعيش فيه .

2-1-2 مفهوم الأدب عند الصوفية :

لقد تركزت تعار يف الصوفية على الجانب النفسي و على جانب الصفات و الخصال التي ينبغي على السالك أن يتحلى بها و في هذا السياق نجد أن هناك من المتصوفة من قاموا بربط الأخلاق بالأدب نجد مثلا الشيخ محمد بن عبد الله يعرف الأدب على أنه :"عبارة عن التحلي بكل فضيلة و التخلي عن كل رذيلة ،و كل أدب في الدنيا يرجع إلى ذلك المعنى"[12]

من خلال هذا التعريف نستخلص أن الأدب هو التحلي بالفضائل و التخلي عن الرذائل ، وهما صفتان أساسيتان في علم الأخلاق و منهما يتكون.

و هناك فريق آخر فصل بين الأخلاق و الأدب، و منهم ابن عطاء الآدمي في قوله: "الأدب الوقوف مع المستحسنات ، أو هو كمال الأشياء ،كما لا يصفوا إلا للأنبياء و الصديقين ."[13]

وفي الأخير نجد أن أغلب الصوفيين و الفلاسفة و رجال التربية يميزون بين الأخلاق والآداب ، فالأخلاق يضعونها في بند المقامات كالشكر و الصبر و الرضا،...، أما الأدب فنجد منها آداب العبادات كالطهارة و الذكر و الصلاة ،...و آداب العادات كالمأكل و المشرب و الملبس و السفر ،...الخ .

و بما أن هدف التربية الصوفية هو الوصول إلى الله عز وجل فان آدابهم مستقاة من الدين ذاته و عليه فمصادر الأدب تتمثل فيما يلي : المصدر الأول فيتمثل في الله سبحانه و تعالى ونستشهد في ذلك بآيات و أحاديث تحث على الأدب في قوله تعالى :"يا أيها الذين امنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا وقودها الناس الحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون "[14].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " أدبني ربي فأحسن تأديبي "[15].

و روى الديلمي في مسند الفردوس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " حسن الأدب من الإيمان"[16].

لم يكتفي المتصوفة في عرض الأدلة لأهمية و دعوة الله تعالى و رسوله إلى التحلي بالأدب بل ربطوا الأدب بنواهي و أوامر الخالق عز وجل وفي هذا المعنى نجد كل من سهل بن عبد الله التستري و يحي بن معاذ الرازي يشيرون إلى ذلك في قولهم :" من تأدب بأدب الله و استعان به سبحانه على أمره و صبر على ذلك وصل إليه و صار من أهل محبته "[17]

أما فيما يخص المصدر الثاني فيتمثل في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك من خلال متابعته في أوامره و أخلاقه و التأدب بآدابه أي التحلي بسلوكياته وصفاته الحميدة و النبيلة و العظيمة .

زيادة عن ذلك نجد الشريعة كمصدر آخر تتشرب منه الآداب بمعنى إتباع أحكام الشريعة.

والمصدر الأخير يتطلب أن يكون الحكيم تربى على آداب سليمة و ملتزمة.

فمن آداب الشيخ مع مريديه هو احترام المريد و التواضع معه – إيثار الشيخ مريديه على نفسه – مواساة الشيخ للمريد – لا يأخذ المربي من المريد أجرا –...الخ هذا فيما يخص الآداب العامة في المعاملة أما الآداب الخاصة في تربية المريد نذكر منها ما يلي :التجرد في اختيار المريد –اختيار المريد على حسب استعداده –...الخ (**سيتم شرح ذلك بالتفصيل الممل في السطور الموالية**).

ما يجدر الإشارة إليه أيضا أن الآداب تكون اتجاه أشخاص أي أدب مع الله و أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم و أدب مع الناس .

2-2 أهمية الأدب:

يرى العارفون :" أن التصوف كله أدب ،لكل وقت أدب و لكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال . ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب و مردود من حيث يظن القبول "[18].

إن هوية و ماهية التصوف تتلخص في الأدب ذلك لأنه مفتاح السلوك بحيث يعتبر شرطا في سلوك كل سالك لأنه (الأدب) يعتبر وسيلة عظمى في تحقيق التربية الصوفية و بالتالي تحقيق أهدافها .

يرى الهجويري " أن المسلم و الكافر ، الموحد و الملحد ، السني و المبتدع متفقون على ضرورة و أهمية حسن الأدب في المعاملات ، و أنه لا يثبت أي رسم في العالم بدون استعمال الأدب ، ...و أن ضرورته لا تخلو منه مرحلة سلوكية ما ، فهو مع المريد في بدايته ، ومع السالك في مجاهداته ، ومع العارف في حقائقه و مكتشفاته "[19].

إذن : يعتبر الأدب عنصرا أساسيا في بناء السلوك الصوفي و بالتالي تحقيق هدفه المنشود .

2-3 آداب الشيخ مع المريد :

قبل الخوض في عرض هذه الآداب ، يجب علينا أن نشير إلى أن للأدب أهمية و منزلة عظمى عند الصوفية ذلك لأنه يأخذ سمة أخلاقية و الاهية و شرعية . وتعتبر آداب الشيخ مع المريد من المبادئ الأساسية و الضرورية في عملية التربية لأن نجاحها يتوقف على علاقة المريد بشيخه بمعنى آخر لكل منهما حقوق و عليهما واجبات حتى تنجح مهمتهما في أداء واجبهما الديني و الروحي و التربوي .

لأن الهدف من التربية الصوفية هو تحقيق غرض ديني و هو الوصول إلى الخالق عز وجل و نيل رضاه ، و غرض تربوي و هو التحلي بالأخلاق الحميدة كالخير ، التسامح ، الرأفة ، حب الآخر ،...الخ و الابتعاد عن الأخلاق السيئة كالشر ، العنف ، اللاتسامح ، الكره ،...الخ .

ويمكننا تقسيم هذه الآداب إلى قسمين :

1)الآداب العامة في المعاملة :

في هذا العنصر سنشير إلى حقوق المريد و الواجبات التي يجب على الشيخ الالتزام بها و هي كالآتي :

-**احترام المريد و التواضع معه** :ما هو معروف في التربية الصوفية أن من مبادئها : احترام الكبير للصغير و احترام الشيخ لمريده ، و التواضع معه ، والسماح أو التنازل على حقه في سبيل ضمان حق مريده (تلميذه) .

-**إيثار الشيخ مريده على نفسه** : " قد يريد الشيخ حاجة لنفسه أو لأولاده صلبا ، وينظر فيرى مريده في حاجة إلى شيء ما فيقدم حاجة المريد على نفسه وولده ، وذلك مثلما حدث مع أبي محمد القلانسي عندما كان يشتري لتلميذه إبراهيم الصايغ بما يقع في يده من الدراهم الرقاق و الشواء و الحلوى و يؤثره على نفسه "[20].

-مواساة الشيخ للمريد : من الواجبات التي تقع على عاتق الشيخ هو مواساة المريد و الفقراء سواء بالماديات كإعطائهم المال إن كانوا بحاجة إليه أو الغذاء ،... ، أو بالمعنويات كالإحساس بمعاناتهم و ألمهم و حزنهم ،و الوقوف معهم في الأوقات الصعبة و مساعدتهم في حل مشاكلهم ...أي المساهمة الوجدانية و الشعورية .

-**لا يأخذ المربي من المريد أجرا** : " ما هو معروف في قواعد الصوفية أن المريد لا يأتي للشيخ باختياره بل بقدر من الله سبحانه و تعالى ، وعليه لا يليق بالشيخ أن يرتفق من المريد أو ينتفع بشيء من ماله و لا من نفسه بخدمة ..."[21]

-**العطف وقضاء الحقوق** : في هذا المعنى نجد السهروردي يقول : " على الشيخ التعاطف على الأصحاب و قضاء حقوقهم في الصحة و المرض ، و لا يترك حقوقهم اعتمادا على إرادتهم و صدقهم و قال بعضهم : لا تضيع حق أخيكما بينك و بينه من المودة "[22].

العمل على بقاء الحرمة : " على المريد أن يتجنب المواقف و العادات التي تسقط حرمته بين مريديه فلا ينام معهم و لا يأكل بينهم "[23].

ما يمكن استخلاصه : أن الآداب تجعل من التربية خدمة لا منفعة ، تطوع لا إجبار، حرية الاختيار لا الإكراه و صدق من قال : " لا إكراه في الدين " ، فحرية المعتقد هي الأساس في نجاح ذلك الدين في حد ذاته و بالتالي الاقتناع بمبادئه و أفكاره وفي الأخير العمل على ممارسته في حياته الاجتماعية ومع بني جنسه .

2)الآداب الخاصة :

فيما يخص هذا النوع من الآداب التي تستعمل أو التي تندرج ضمن العملية التربوية التي تشترط وجود المريد و الشيخ ، وتتلخص هذه الآداب فيما يلي :

–التجرد في اختيار المريد : إن لم يتم اختيار المريد لشيخه من طرف الخالق عز وجل أو العكس اختيار الشيخ لمريده فعلى الشيخ أن يختار مريده بكل موضوعية وحيادية بمعنى لا يتم الاختيار على أساس القرابة أو الجاه أو النسب وما شبه ذلك .

–اختيار المريد على حسب استعداده :يجب على المريد أن يكون يملك استعدادات و مهارات للوصول إلى الهدف المنشود ومن هذه المهارات و الاستعدادات نذكر على سبيل المثال " تلميذ ذي فطرة نقية ، نفس نقية ، روح زكية ، إرادة قوية ، و همة عالية "[24].

–التدرج و التلطف في التربية : بمعنى أن على الشيخ أن يلقن و يراعي التدريج في تهذيب المريد درجة فدرجة ، ومن حال إلى حال .

–الحكمة في النصيحة : عندما يقدم الشيخ النصيحة قد يستعمل أسلوب الليونة أو الرفق أو التعميم و قد يحدث ذلك عند مخالفة حكم شرعي من دون قصد ، وقد يستعمل أسلوب التشدد وقد يحدث ذلك عند مخالفة حكما شرعيا عن قصد .

–المحافظة على الأسرار : من واجبات الشيخ أن لا يبوح بأسرار مريديه .

–الرجوع إلى الله في عملية التربية : ذلك لأن المريد هو أمانة عند الشيخ .

ومما سبق ذكره ، نستخلص أن آداب الشيخ مع المريد هو من أجل تحقيق الرسالة التي وجد من أجلها و تحقيق هذه الأخيرة متوقف على منح المريد حقوقه في مقابل قيام الشيخ بواجباته .

3– من آداب السلوك الصوفي :الصلاة على النبي

إن آداب أهل طريق الله من الصوفية ..ليست مجرد أقوال تقال أو نصائح تلقى أو كتابات تخط فيقرأها أو يهجرها من يهجر ..إنها سلوك حياتي يعيشه الصوفي و يتذوق معانيه و أسراره حتى يعاين مصدر كل خلق تخلق به و يشهد بعين الحق و نور الحقيقة نتائج ذلك السلوك في نفسه و مجتمعه ..إنهم دعاة إصلاح و رجال دعوة وشهداء حق ...إنهم جلساء الله "[25].

إن ما يميز الصوفية هو الحث على ممارسة كل اعتقاد أو إيمان بحيث نجدهم يهتمون بالعمل أكثر من اهتمامهم بالأقوال كما يقال : "هم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال "[26].

و في هذا السياق نجد أن من آداب العبادات هو الصلاة على النبي ، سؤال قد يطرأ في ذهن كل واحد منا ،لماذا قلنا الصلاة على النبي و لم نقل الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فالإجابة على هذا السؤال تكمن في أن لفظ النبي هو من أهم صفات و أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأن كلمة" **نبي** " ترجع إلى الإنباء أي إخبار الله تعالى أسراره للنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

في هذا العنصر سننتقل من لحظة زمنية تتمثل في عرض ماهية الصلاة إلى لحظة زمنية أخرى تتمثل في دافع الصوفية للصلاة على النبي (ص).

3-1 مفهوم الصلاة :

حقيقة لا أحد منا يجهلها أن الصلاة هي ركن أساسي من أركان الإسلام ، و بعبارة أخرى الصلاة هي عمود الدين الإسلامي ، قال النبي في معنى الصلاة ما يأتي : " رأس الأمر الإسلام ،و عموده الصلاة "[27].

فالصلاة لغة : " هي الدعاء بالخير و الحسن و الطيب"[28].

و نعني بها اصطلاحا :" عبادة ذات أقوال وأفعال و هيئة مخصوصة مبتدئة بالتكبير و مختتمة بالتسليم"[29].

أما معناها في الشرع الديني :" هي عبارة عن مجموعة أقوال و سلسلة أفعال خاصة ، تفتتح بالتكبير (أي قول : الله أكبر) و تختتم بالتسليم (أي قول : السلام عليكم و رحمة الله) ، كل ذلك حسب أصول و شروط محددة معينة بدقة و إتقان "[30].

هذا فيما يخص الصلاة عامة أما حديثنا عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقد لاحظ الراغب الأصفهاني أن كلمة صلى من الناحية اللغوية" أنها تعني زال عن نفسه بهذه العبادة الصلي الذي هو نار الله الموقدة ، وبناء الفعل كبناء مرض لإزالة المرض،...فالمصلي يبالغ في النفع و إزالة العلل النفسية و القلبية ،كالمرض لنفسه يجتهد في مداولة العلل البدنية ،...و يملأ وقته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ردا للجميل باعتبار النبي هو الواسطة بين الله و العباد "[31].

فمعنى الصلاة على النبي عند الصوفيين ما هي إلا ردا للجميل ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر الوسيط بين الخالق عز وجل و بين عباده من المسلمين و ردهم للجميل يتلخص في التقدير و التعظيم و التمجيد لرسول الأمة عامة و الأمة الإسلامية خاصة ، كما أنهم يرون (الصوفيين) أن النعم التي هم عليها الآن هي بفضل بركة و أمانة و صدق الرسول (ص)

و هذا الطقس له أهمية في ديننا الحنيف بحيث نجد أن الصلاة عامة و الصلاة على النبي خاصة قد وردت في الكتاب و السنة فالصلاة على النبي هي ممارسة تكون من ثلاث أطراف فالطرف الأول و هو الله تعالى أي أن الله يصلي على نبيه ثم يأمرنا نحن بالصلاة عليه و ذلك تقديرا و تشريفا و رحمة لنبيه.

و هناك من يرى أن الله جعل الصلاة على النبي "مقابلة للعنة على أعدائه ، لأن اللعنة معناها الأبعاد و الطرد ،والقطيعة و سدل الحجاب ، و الصلاة من الله هي تعبير عن عطفه و قربه ،و تجليه ، و ظهوره للمصلى عليه بما هو أهله فان كان من عامة المؤمنين ، فحظه من الله عطفه عليه بما يستحقه من أنواع الرحمات و إن كان المصلي عليه من خاصتهم ، فحظه من الله هو حظه إذ لا يكتفي بدونه "[32].

إذن : اللعنة هي الطرد من رحمة الله .

أما النوع الثاني فيتمثل في صلاة الملائكة عليه و النوع الأخير من الصلاة على النبي هو صلاة الأمة عليه (النبي) و ذلك امتثالا لأوامر الله عز وجل و طاعة لحكمه و تقديرا و تعظيما لنبيه و بهذا فهي تعتبر عبادة يتقرب بها العبد من ربه و هذا ما يبرز مكانته العظيمة عند الله تعالى باعتباره الوسيط بينه (الله) و بين عباده و زيادة عن ذلك هو إظهار الحب و الاحترام لسيد الأمة " محمد صلى الله عليه وسلم ".

إن **أفضل أيام الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم** هو ليلة الخميس و يوم الجمعة كما تستحب الصلاة صباحا و مساء، وقد ورد في **فضل الصلاة** على النبي أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي : في قوله صلى الله عليه وسلم: **"أكثروا من الصلاة علي في يوم الجمعة فانه يوم مشهود تشهده الملائكة و إن أحدا لن يصلي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها "**

و يقول أيضا :"أكثروا الصلاة علي فان صلاتكم علي مغفرة لذنوبكم واطلبوا لي الدرجة و الوسيلة فان وسيلتي عند ربي شفاعة لكم ". ويقول أيضا :" **إذا كان يوم الخميس بعث الله ملائكة معهم صحف من فضة و أقلام من ذهب يكتبون يوم الخميس و ليلة الجمعة أكثر الناس علي صلاة** "[33].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " **من صلى علي من أمتي كتبت له عشر حسنات و محيت عنه عشر سيئات** "[34].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا : " **من نسي الصلاة علي فقد أخطأ طريق الجنة ، و إنما أراد بالنسيان الترك و إذا كان التارك يخطئ طريق الجنة كان المصلي عليه سالكا إلى الجنة** " [35] .

ويقول الله تعالى : " إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما "[36].

و فيما يخص **حكمها** فنجد مذاهب و آراء متنوعة ومختلفة فمنهم من يرى أنها **مستحبة** و منهم من يقول أنها **واجبة** ومنهم من يقول أنها **فرض إسلامي**.

و في الأخير من بين **الصيغ في الصلاة على النبي** نجد الصيغة التي أشار إليها بنفسه في قوله صلى الله عليه وسلم : "**قولوا : اللهم صل على محمد و على آل محمد ،كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم انك حميد مجيد و السلام كما علمتم**"[37].

3-2 دوافع الصلاة على النبي من المنظور الصوفي :

يمكننا إبراز دوافع الصوفيين للصلاة على النبي (ص) و ذلك من خلال خصائص و صفات يتميز بها عن سائر الخلق (الأمة جمعاء بما فيهم الأنبياء و الرسل) ، وهي كالآتي "فضل الرسول (ص) على سائر الأنبياء في ذاته و رسالته و معجزاته ودلائل نبوته ،ووصوله في القرب إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات مما لا يدانيه فيها جبريل أو أي ملك مقرب أو انسي مصطفى فضلا عن غيره كما أنه دعا و جاهد لنشر العقيدة الصحيحة و الشريعة التامة بالحكمة و الموعظة الحسنة والجهاد المبين وفي الأخير قدم للبشرية صورة أخلاقية صلحت أن تكون أسوة للمتخلفين "[38].

ومن بين الذين أشادوا بفضائله و شجاعته نجد إبراهيم الدسوقي في قوله : "انه قمر الهداية و شمسها ،و نور الرسالة و أسها و فرعها ، شق اسمه وعلى ساق العرش رسمه ،و بجملته قربه و أدناه و كلمه و نجاه ،قرن طاعته بطاعته ،و فضله على جميع خلقه و بريته ،واختصه بخصوصيته ، واختص له أمته ،فهو الأقوى قوي ،و أعلى مكانا ،و أسنا سنا ،و أوضح برهانا ،و أزكى و أرقى و أسمى و أعلى و أسمح يدا ،و أسخا و أنقى وأعدل وأفضل و أقمر وجها ،و أصبح حسنا ،و أنجح وأثبت جنانا ،وأوسع علما ،و أكثر حلما ،و أرفق كرما ،و أجود عطاء و نعما ،..."[39].

إضافة إلى هذا نجد" **القصيدة المحمدية" للشيخ البوصيري أبي عبد الله شرف الدين محمد بن حماد الصنهاجي** :

"محمد أشرف العرب و العجم محمد خير من يمشي على قدم .
محمد باسط المعروف جامعه محمد صاحب الإحسان و الكرم .
محمد تاج رسل الله قاطبة محمد صادق الأقوال و الكلم"[40] .

هذه حقيقة لا يمكننا إنكارها ذلك لان الرسول (ص) هو قدوة و نموذجا بحيث يجسد الدين الذي أرسل به ، حيث أقنع الناس بجمال و كمال هذا الدين من خلال مبادئه و أفكاره الرائعة فجسدها في أرض الواقع حتى تكون أفكارا و مبادئ حقيقية معاشة لا مجردة و لا خيالية

وعليه فالرسول صلى الله عليه وسلم هو شخصية عظيمة و نادرة في الوجود ذلك لما يتميز من خصال و أخلاق حميدة فمهما سميناه و وصفناه فإننا لا نعطيه حقه في الوصف وفي هذا السياق بإمكاننا الإشارة إلى الأسماء المتعددة و المتنوعة و التي تندرج في" مائتان وواحد ، نذكر على سبيل المثال : **سيدنا محمد ، سيدنا أحمد ، سيدنا حامد ، سيدنا محمود ، سيدنا وحيد ، سيدنا ماح ، سيدنا حاشر ، عاقب ، سيدنا طه ، سيدنا يس ، سيدنا طيب ، سيدنا ولي ، سيدنا حق ، سيدنا أمين ، سيدنا روح القدس ، سيدنا روح الحق ، سيدنا شاف ، سيدنا سابق ، سيدنا صاحب الشفاعة ،...الخ** "[41].

و في النهاية ،لا يسعنا القول سوى أن الصلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم ما هي إلا سلوك مهذب و في نفس الوقت وسيلة لها دورها في التربية الصوفية فهي تعتبر كسند لكل سالك "صوفي " بحيث توجه سلوكه و ترشده إلى مبتغاه أي الوصول إلى الله تعالى ونيل رضاه و التقرب منه وهذا ما أكده كل من ابن العربي و العز بن عبد السلام" **أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تدل على نصوح العقيدة و خلوص النية وإظهار المحبة و الاحترام للواسطة الكريمة**"[42] ، إن إكثار الصلاة على النبي قد يؤدي بالإنسان إلى مشاهدته و هي طريقة التي اعتمدها كل من" **الشيخ نور الدين الشوني ، و الشيخ أحمد الزواوي و الشيخ محمد بن داود المترلاوي** "[43]، و من خلالها أيضا نستطيع أن نتأمل و أن تصفى قلوبنا من الحقد و الكره و الحسد ، لأن الإكثار من الصلاة عليه (النبي صلى الله عليه و سلم) محبة فيه وبالتالي هذه المحبة تجعلنا نتصف بمكارم أخلاقه من رأفة و محبة و إحسان وحوار و تسامح و الكرم و الأمانة ، وهذه الصفات إن وجدت في المجتمع أدت به إلى الاستقرار و الاستمرار .

الهوامش :

1–محمود إسماعيل. سوسيولوجيا الفكر الإسلامي في طور الانهيار– الفلسفة و التصوف– القاهرة . دار مصر المحروسة للطبع و النشر . الطبعة الأولى . 2005. ص : 124.

2–أبو حامد الغزالي .القواعد العشرة. بيروت .المكتبة العصرية .الطبعة الأولى .2003.ص : 119–127.

3– عبد الله الشاذلي . موسوعة التصوف الإسلامي –السلوك و الدوافع و التلقي – القاهرة . دار الآفاق العربية . الطبعة الأولى .2006. ص 33.

4– عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق .ص : 34–35.

5– أكرم مبارك عصبان .في مقاله : التربية عند الصوفية على موقع :

http://www.soufia-h.net/showthread.php

consulte le :15–01–2013.

6–أكرم مبارك عصبان . التربية عند الصوفية . نفس المرجع السابق .

7– أكرم مبارك عصبان . التربية عند الصوفية .نفس المرجع السابق .

8–عبد الله الشاذلي .موسوعة التصوف الإسلامي – السلوك و الدوافع و التلقي التصوف. نفس المرجع السابق . ص : 291.

9–أكرم مبارك عصبان . التربية عند الصوفية . نفس المرجع السابق .

10–أكرم مبارك عصبان . التربية عند الصوفية .نفس المرجع السابق .

11– عبد الله الشاذلي . موسوعة التصوف الإسلامي – الالتزام الصوفي –القاهرة . دار الآفاق العربية . الطبعة الأولى .2006. ص : 11.

12–عبد الله الشاذلي . موسوعة التصوف الإسلامي – الالتزام الصوفي .نفس المرجع السابق . ص : 14.

13عبد الله الشاذلي .موسوعة التصوف الإسلامي – الالتزام الصوفي . نفس المرجع السابق . ص : 15–16.

14– سورة التحريم . الآية : 06.

15–محمد بن بركة .موسوعة الطرق الصوفية – المدخل إلى التصوف الإسلامي . الجزائر . دار الحكمة . 2009. ص : 254.

16– عبد الله الشاذلي .الالتزام الصوفي . نفس المرجع السابق . ص : 19.

17–عبد الله الشاذلي . الالتزام الصوفي . نفس المرجع السابق . ص : 19.

18–محمد بن بركة .نفس المرجع السابق . ص : 255.

19–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 22– 23 .

20–عبد الله الشاذلي . السلوك و الدوافع و التلقي . نفس المرجع السابق .ص : 367.

21–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع . ص : 368–369.

22–عبد الله الشاذلي .نفس المرجع .ص : 369.

23– عبد الله الشاذلي . نفس المرجع . ص : 370.

24–عبد الله الشاذلي : نفس المرجع . ص : 373.

25–سعيد مراد . التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة . مصر . عين الدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية . الطبعة الأولى . 2007. ص : 127.

26–سعيد مراد . نفس المرجع السابق . ص :210.

27–غسان سليم سالم . محاور الالتقاء و محاور الافتراق بين المسيحية و الإسلام . لبنان . بيروت . دار الطليعة للطباعة و النشر . الطبعة الأولى . 2004. ص : 274.

28– غسان سليم سالم . نفس المرجع السابق . ص : 273.

29–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 347.

30–غسان سليم سالم . نفس المرجع السابق . ص :273– 274.

31–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 370.

32–أحمد بن مصطفى العلوي. دوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختار . مستغانم . المطبعة العلوية . الطبعة الثالثة . 1991. ص : 22.

33– عبد الله الشاذلي : موسوعة التصوف الإسلامي – الالتزام الصوفي . نفس المرجع السابق . ص : 254– 255.

34–محمد بن بركة . موسوعة الطرق الصوفية – الموالد النبوية و الصلوات الصوفية : الصلوات على سيد الكائنات . الجزائر . دار الحكمة . الجزء الأول . ص : 190.

35–محمد بن بركة . نفس المرجع السابق . ص : 191.

36– سورة الأحزاب . الآية : 56.

37– عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 366.

38–عبد الله الشاذلي .نفس المرجع السابق . ص : 357.

39–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 358.

40–محمد بن بركة . نفس المرجع السابق . ص : 05.

41– محمد بن بركة . نفس المرجع السابق . ص : 195– 196– 197.

42–عبد الله الشاذلي .موسوعة التصوف الإسلامي – الالتزام الصوفي . نفس المرجع السابق . ص : 359.

43–عبد الله الشاذلي . نفس المرجع السابق . ص : 371.